(غيث النفس)

-الرواية-

أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال {مَثلُ ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل الغيب الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قَبِلَت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك ماءً ولا تُنبت كلأً. فذلك مَثل مَن فَقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم، ومَثل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هُدى الله الذي أُرسلت به}

-العرض على الآية-

أ- ضرب الأمثال للأمور الغيبية والروحية والعقلية والدينية هو أمر شائع في القرءان، بل القرءان كله أمثال {ولقد صرّفنا للناس في هذا القرءان مِن كل مَثل} و {نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرءآن} ثم قال في آخر سورة يوسف {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب} والعبرة كما قال في الرؤيا {إن كنتم للرؤيا تعبرون} وهو {تأويل الأحاديث}. فهذا وما

شاكله هو أصل قول النبي هنا {مَثل ما بعثني الله به.. كمثل}. فإنّ ما بعثه الله به هو {الهدى والعلم} وهي أمور مجرّدة وعقلية وغيبية الأصل، فضرب لها مَثلاً من عالَم الآفاق وهنا هو {الغيث} تحديداً.

ب-الغيث تحديداً ورد كمَثل لأمور تتعلّق بالوحي والملائكة والماء في القرءان.

قال تعالى {إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أني ممدّكم بألف من الملائكة مردفين} فهنا بيّن أن الله يغيث مَن استغاثه، بحسب الحال.

والغيث مرتبط بالماء النازل من السماء تحديداً، وهذا وجه ربطه الهدى والعلم النبوي لأن الوحي أيضاً ماء النفس الذي نزل من السماء التي هي العالَم الأعلى. فمن ربط الغيث بالماء قول يوسف {ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يُغاث الناس وفيه يعصرون} كما قال في السحاب {أنزلنا من المُعصرات ماءً ثجاجا. لنخرج به حبّاً ونباتاً. وجنّاتٍ}. كذلك ارتبط الغيث بالماء الدنيوي، كما قال {اعلموا أنما الحيوة الدنيا.. كمثل غيث أعجب الكفّار نباته}. وقال {إن الله عنده علم الساعة وينزّل الغيث} وقال {وهو الذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد} فربط الغيث بالرحمة وبأسمائه الحسنى الولي الحميد وهما اسمان مرتبطان بإنزال الكتاب كما في قوله {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد} وقال

في أخرى {إن وليّ الله الذي نزّل الكتاب} و {فالله هو الولي وهو يحيي الموتى} وإحياء الموتى مرتبط بإنزال الماء من السماء كما هو شائع في القرءان. بل حتى في النار ارتبط الغيث بالماء والله يجيب استغاثة المستغيث حتى الكافر في النار كما في قوله {إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا} فمن شأن الله إغاثة المستغيث به بالماء، أيا كانت صورة الماء بعد ذلك بحسب حال المستقبل له والمستغيث نفسه، لكن المهم أن الله يغيث مَن استغاث به.

ولأن الله تعالى يغيث المستغيث به، كذلك تجد رسل الله يغيثون مَن استغاث بهم، كما في قوله تعالى عن موسى {ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه} وسمى الله استغاثة المستغيث بعد ذلك بأنها استنصار في الآيات بعدها {فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إنك لغوي مبين. فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوّ لهما قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس}. فهنا نرى الاستغاثة أيضاً تكون بالاستصراخ والاستنصار على العدو. (تنبيه لبحث لاحق: تسمية الله العملية الأولى بالاستغاثة المرتبطة بالماء والملائكة والأمر السماوي، وتسمية ما بعد ذلك بالاستنصار وربطه بالبطش، يشير إلى

أن وكز موسى الأول لم يكن بعمل أرضي مادّي، أي كان من قبيل الدعاء عليه أو نوع من العمل النفسي الغيبي).

ثم نجد الربط المباشر ما بين الماء النازل من السماء والقرءان في قوله في سورة الفرقان مثلاً، حيث قال {وأنزلنا من السماء ماءً طهورا. لنحيي به بلدة ميتا..ولقد صرّفناه بينهم ليذكروا فأبى أكثر الناس إلا كفورا. ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا. فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيرا} فضمير {جاهدهم به} راجع إلى القرءان، وهو الذي صرّفه الله بين الناس ليذكروا {فأبى أكثر الناس إلا كفورا} كما قال في آية الأمثال القرآنية، فالضمير راجع إلى تأويل كلمة {أنزلنا من السماء ماءً طهوراً} فهو القرءان، الذي {لا يمسّه إلا المطهرون}، والهدى والعلم في القرءان.

النتيجة: الرواية التي تضرب مثلاً للوحي النبوي بأنه { كمثل الغيث الكثير} قرآنية من هذا الوجه. وكذلك هو {الغيث الكثير} لأن الله قال {إنا أعطيناك الكوثر} وكذلك قال في كلمات الله {لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي}. فوجه من وجوه كثرته هو كثرة الهدى والعلم فيه، يعني الأحكام والعلوم، وكذلك كثرة الكلمات. وكذلك كونه يصل إلى شتّى أصناف الناس كما تراه في الرواية هنا، حيث يصل هدى وعلم النبي إلى القابِل والماسك والرافض.

-دراسة الرواية-

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم {مَثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم... فذلك مَثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به...ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به}. لاحظ هنا ثلاث مرّات تأكيد على أن مضمون المَثل وتأويله يتعلّق بما بعث الله وأرسل النبي به. فسمّاه موضوعاً للبعثة وموضوعاً للرسالة. واعتبر الفقه معرفته، وهو {دين الله} و {هدى الله}. وثنائية أخرى، هي ثنائية {فقه} و {نفعه}. وثنائية أخرى، هي ثنائية {فعَلِّم وعلّم}. وأوّل ثنائية هي {الهدى والعلم}. وبدأ الكلام بذكر المَثل وختمه بتأويل المَثل، وهي ثنائية أخرى. فما الفرق بينهما؟

الوحي يتضمّن في المحصّلة إما حكماً عملياً أو علماً عقلياً. إما شيء للإرادة، وإما شيء للعقل. وإما مزيج منهما وهو السؤال. فأساس الوحي الحكم والعلم. لذلك قال {الهدى والعلم} فالهدى هو الأمر العملي والحكم الشرعي، والعلم هو الأمر العقلي والخبر الواقعي.

ثم الفقه والانتفاع، يُقابلان الصنف الذي قَبل الماء والصنف الذي أمسك الماء. فالفقيه هو الذي قَبل الماء، والمنتفع هو الذي أمسك الماء. ولا ثالث فيه خير.

ثم دين الله وهدى الله، فحيث أن الهدى هو الأمر العملي، فدينه هو الأمر العقلي العلمي "فاعلم أنه لا إله إلا الله". فإن ذُكر الدين وحده، فالدين يشمل العمل والعلم، لكن إن ذُكر منفصلاً عن الهدى فيكون الدين هو جوهر الدين الذي هو العلم فإنه لا حكم ولا عمل بدون العلم بالحق.

{كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً}

الأرض مَثل على الناس كما سيأتي في تأويل النبي. ومن هنا نأخذ مفتاح فهم ذكر الأرض في القرءآن على أنه مَثل مضروب للناس، بالتالي السماء هو مَثل مضروب للنبي والأئمة ونحو ذلك ممن منهم يُنزل الله الهدى والعلم على الناس. وهذا مفتاح تنفتح به بإذن الله أبواب آيات كثيرة في القرءان.

{فكان منها نقية قَبِلَت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير}

ذُكرت ثلاث أصناف من الناس. هذا أوّلها وأعلاها. وعرّفها هنا أولاً بأنها {نقية} ثم بأنها {قَبلت الماء}. فقوله {نقية} صفة للأرض، وقوله {قَبلت الماء} فعل للأرض. فالنقاء تعبير عن النفس واسم لها، والقبول فعل لها. من هنا تجد القرءان يقدّم التزكية على التعلّم في قوله "يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة"، وقال الله "قد أفلح من تزكه. وذكر اسم ربه" فقدّم التزكية على

التعلم والذكر. كذلك في رواية عن صحابي ذكر أنهم تعلّموا الإيمان قبل القرءان ثم لما تعلّموا القرءان ازدادوا به إيماناً، فهذا يدلّ على أمر مقدّم على تعلّم القرءان وبدونه لا يحصل القبول المثمر الحي له. من النقاء معرفة قيمة النفس، وقيمة الدنيا، وأن السعادة في العلم والذكر والفكر والدعاء، والشقاء في الاعتماد على الحواس والمال والناس فإن ذلك كله يفنى ويتقلّب وينعكس وينكسر وينتكس. فحين يقدّر العاقل العلم حقّ قدره، ويريد الأمر الإلهي، حينها يدخل في مرحلة {قبلت الماء} حين تنزل عليه أي يسمع الهدى والعلم من النبي. فالماء لا ينقّي الأرض، كذلك الوحي الرسولي لا يجعل الإنسان فقيهاً بحد ذاته، وإلا لرأينا كل الناس أو كل المسلمين فقهاء من أولي الألباب وليس كذلك كما هو مشهود.

{قبلت الماء فأنبتت} النبات ليس الماء مجرّداً، بل الماء حين يأخذ صورة خاصة تتناسب مع ما في الأرض من أسباب النبات كالبذور مثلاً. فالماء بحد ذاته لا يُسبب ظهور النبات باستقلال عن حال الأرض، وإلا لوجدنا الأرض كلها ذات نبات في حال نزل عليها الماء، وهذا غير واقع. بالتالي، الأرض هي النفس، وبحسب ما في النفس من أسباب النبات يتمثّل الوحي النبوي بما فيه فتخرج الأمور منه. فلا يقال لصاحب النبات: قد غيّرت الماء وأين الماء. فإن الماء في باطن النبات. كذلك الأمر في الدين. فإن أخذ الهدى

والعلم من النبي لا يعني أن ما سيظهر عليك من رؤى ورأي سيساوي في صورته الهدى والعلم، بل سيتمثّل بحسب ما في نفسك. ومن هنا اختلاف الناس في أعمالهم وأفكارهم وأخلاقهم بالرغم من أخذهم كلهم من ماء واحد هو الوحي النبوي.

{فأنبتت الكلأ والعشب الكثير} في اللغة، "الكلأ يُطلَق على النبات الرطب واليابس معاً، والعشب للرطب فقط". فالعامل المشترك بين الكلأ والعشب هو النبات الرطب، ويختص الكلأ بكونه يجمع الرطب واليابس معاً. فإذا كان الكلأ يشمل الرطب واليابس، فما فائدة ذكر العشب وهو مندرج في الكلأ من حيث كونه نباتاً رطباً؟ لأن المقصود بذلك نوعان من النبات. الرطوبة انعكاس الماء، بالتالي أي نبات ليس فيه رطوبة فليس من الدين، الرطوبة هي الاستدلال بالآيات القرآنية، فإنه الماء على الحقيقة. فكل مَن جاء بدين الله سواء كان أمراً علمياً أو حكمياً بشيء لا يرجع إلى كتاب الله ووحيه فليس هو النبات المقصود هنا. ثم اليابس يرجع إلى طبيعة الأرض فهي يابسة، وذلك تعبير عن الجانب البشري، أي قد تظهر أمور تتعلّق بالجانب البشري والزمني والمادي والظرفي، لكن هذه يابسة لا حياة فيها تجعلها مستمرة فيما وراء القيود التي نشأت فيها وأنشأها صاحبها، فهذا مثل الاختيارات الشخصية والاختيارات الخاصة بالفقيه أو بزمنه ومجتمعه وظروفه الخاصة. فالفقيه

سيتمثّل القرءان في زمنه أيضاً، ولن يبيّنه فقط على مستواه الأقرب إلى المائية التي هي الإطلاق والتجريد، فنعم توجد أمور تتجاوز الأزمنة بحكم كونها بياناً عن أمور نفسية وأخروية وإلهية متعالية، ومن ذلك نفس هذه الرواية التي ندرسها الآن بإذن الله. لكن قد تظهر أمور دينية يابسة هي دون ذلك، فهذه أيضاً لها مشروعية لكن بشرط أن تكون ذات رطوبة أيضاً بمعنى أن يتم ربطها والاستدلال عليها بل استنباطها من الوحي النبوي بما فيه من الهدى والعلم وإلا فليس هذا فقهاً في دين الله. إذن قوله {فأنبتت الكلأ} يدل على الفقه الجامع بين بيان الحقائق المتعالية للدين مع تطبيقات خاصّة نازلة عصرية محدودة له. وقوله {والعشب} يدلّ على الفقه المختص ببيان الحقائق المتعالية للدين. وكلاهما خير وحق. وسيوجد من ذلك في هذه الأمّة من النوعين الشيء {الكثير} بحمد الله تعالى. لكن في جميع الأحوال، الفقيه لا يساوي الوحي الذي فقه فيه، فالفقيه يمثّل الدين بعقله ويتمثّله في زمنه، فهو نبات وليس ماء، الماء أعلى من النبات وأكثر تجرّداً ولطافةً منه. فلا يجوز الاعتراض على الفقيه في نباته النابت بماء الوحي، لكن أيضاً من الجهل الانحصار في فقيه أو فقه وترك ماء الوحي، كلاهما تطرّف غير محمود.

{وكانت منها أجادب} في اللغة هي "الأرض الصلبة التي لا ينضب منها الماء". لابد من وجود مؤمنين ذوي صلابة في التعلّق بحروف النصّ الديني ويحفظون كل حرف وتشكيل حرف منه، وسيوجد من هؤلاء صنف هم الدرجة الثانية في الأمّة، وهم ممن انتفع بالوحي النبوي.

{أمسكت الماء} مثل إمساك حروف القرءان، وحروف الروايات النبوية بالتبع للقرءان على أساس أن كلام النبي من الوحي. بهذا الاعتبار، لابد من الصلابة، وهي التعلّق بالحروف مع الاشتغال بالاستنساخ والحفظ في الذاكرة مع نقل المحفوظ جيلاً بعد جيل كشهادة يعطيها السابق للّاحق. فالوحي جاء في صورة مكتوبة ومنطوقة، فلابد من وجود طبقة تمسك الوحي في صورته المكتوبة والمنطوقة معاً. وأمّا مَن سعى في تضييع المكتوب، أو تضييع المنطوق التابع له، فهو من أعداء الله ورسوله والمؤمنين، فليكن هذا ببالك.

{فنفع الله بها الناس} النفع هنا لغير الأرض ذاتها. فالأرض شريكة في الأجر من حيث قول النبي "متعلّم الخير والمعلّم في الأجر سواء"، و"الدال على الخير كفاعله"، فمن هذا الوجه يشارك الماسك المنتفع بالماء وإن لم ينتفع هو بأكثر من الإمساك لغيره.

{فشربوا وسقوا وزرعوا} شربوا هم، سقوا أنعامهم، وزرعوا أرضهم. فالماء له ثلاث وظائف. الشرب وظيفته الروحية، والسقاية وظيفته الإرشادية،

والزرع وظيفته البنائية الفكرية. فالشرب للفقيه نفسه، والسقاية تعليمه المتعلّمين منه والتابعين له والآخذين عنه ممن لم يبلغ درجة العالِم بعد فهو بحاجة إلى أن يسقيه غيره وأما العالِم فهو الذي يشرب بنفسه، وأما الزراعة فتعبير عن بناء الأفكار والأحكام بناء على الوحي فهذا مثل الذين يصنعون المذاهب الكلامية والشرعية بما أخذوه من الوحي. هذا تأويل. تأويل آخر فردي: {فشربوا} في روحهم بتعقّل الوحي، {وسقوا} أجسامهم بتطبيق الوحي بصور ظاهرية، {وزرعوا} بالذكر والدعاء والاستغفار الذي به تُزرَع الآخرة فإن "الدنيا مزرعة الآخرة".

{وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تُمسك الماء ولا تنبت كلأ}

لاحظ هنا لم يذكر عدم إنبات العشب، واكتفى بذكر الكلأ الذي يُطلق على الرطب واليابس معاً فذكر الأعلى والأشمل في الدلالة ليدل على أنهم لم ينتفعوا مطلقاً به. وبيّنه بعد ذلك فقال بأنه {مَثل مَن لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلت به} فقوله {لم يقبل} يضاد {قبلت الماء}، وقوله {لم يرفع بذلك رأساً} يضاد {أمسكت الماء} فرفع الرأس عبارة عن الاهتمام بالشيء مما يشير إلى أن أهل إمساك الماء وهم حفظة النصوص والظواهر قد رفعوا رأسهم به، فلابد من تقديرهم من هذا الوجه وبهذا القدر، فإن دخلوا

كعادتهم في أمور سيئة من الدنيا والإفساد بعد ذلك فيُلامون على الفساد لكن يُشكرون على الحفظ والإمساك الحرفي ولا يطغى إنسان فيلومهم مطلقاً وينكرهم تماماً ويبطل قيمتهم في الأمّة بسبب ما دخلوا فيه من الأمور المظلمة والفاسدة فلكل شيء حكمه "فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره".

ثم لاحظ أنه قدّم ذكر {لا تمسك الماء} على {لا تنبت الكلأ}، خلافاً للترتيب السابق حين ذكر {قبلت الماء} ثم ذكر بعدها {أمسكت الماء}. لأن إمساك الماء خطوة أولية وضرورية لقبول الماء، فكل قابل ماسك لكن ليس كل ماسك قابل. فالقابل أمسك الماء وأضاف على ذلك تحويل الماء إلى صورة النبات، لكن الماسك حفظ صورة الماء فقط. فكل فقيه حافظ، لكن ليس كل حافظ فقيه، فيما فقه فيه. نعم، قد تكثر محفوظات المختص بالحفظ بالنسبة لحفظ الفقيه، لكن الفقيه فيما فقه فيه هو حافظ أيضاً بالضرورة وإلا فلا فقه أساساً. فبيّن هذا الترتيب المنطقي حين ذكر القيعان، فبيّن أنهم لا يرفعون رأساً بالكلام الإلهي والنبوي، ثم لا يقبلون هدى الله وعلى هذا الترتيب ذكرهم في التأويل {ومَل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله}.

إذن الترتيب الصحيح للتفقه في الدين: أوّلاً تمسك الماء، ثانياً تقبل الماء. يعني أولاً تحفظ الكلام، ثانياً تتفقه في الكلام. لكن ينبغي أن يكون قصدك التفقه، لأن النبي قدّم الفقيه على الحافظ، حين قدّم القابل على الماسك.

قال النبي }فذلك مثل مَن فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِم وعلّم{

قوله }فقه في دين الله{ يدل على الفريق الأول، القابل. وقوله }نفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم{ يدل على الفريق الآخر، الماسك فهو الذي يحفظ الكلام وينقله غيره فيُسمّى تعلّماً من حيث أنه تعليم الحروف. وإن كان التعليم بالأصل يدل على تعلّم المعاني، لكن حيث أن المعاني من المباني فالتعلّم ينطلق على تعليم المباني أيضاً مجازاً لأنها مجاز ومعبر للمعاني. وقلت ذلك لأن قوله }فعلم وعلّم{ يشير إلى أنه تعلّم في نفسه وعلّم غيره، بالتالي لا معنى زائد على }فقه في دين الله{ من هذا الوجه. إلا أن يقال بأن }فقه في دين الله{ تشير إلى فقهه في نفسه، ثم بعد ذلك تحوّل إلى }فعلم وعلّم{ ليدل على أنه لابد من انتهاء الأمر إلى تعليم غيرك، فلابد من تعليم الآخرين وعدم كتم العلم وهذا من أساسيات الفقه في دين الله. على الوجهين، يتقدّم الفقيه على متعلّم الحروف فقط، ولابد من تقدّم فقه النفس على تعليم الغير. فالحقيقة واحدة على الاعتبارين، وهي البدء بالنفس ثم بالآخرين.

-تأويل المذاهب الشرعية-

بما أن القرءان أثبت أن الوحي يمثّل بالغيث، وأن الله تعالى يغيث مَن استغاثه ولو كان من الظالمين في النار فضلاً عن المؤمنين في الآخرة والأولى، وجاءت الرواية عن النبي بتصديق القرءان بقوله {مثل ما بعثنيالله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً}، فبناء على ذلك نرى أن باب صلاة الاستسقاء من المذاهب الشرعية الحكمية يشير إلى هذا المعنى بحسب التأويل الباطني. وهذا ما نريد النظر فيه إن شاء الله الآن. ونقرأ باب صلاة الاستسقاء من كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد رحمه الله. فتعالوا ننظر بعون الله.

قال القاضي {الباب السابع في صلاة الاستسقاء}

استسقاء ماء الدنيا والجسم لا يخصّنا هنا، فمقصودنا هن غيث النفس وماء الوحي الذي هو الهدى والعلم وما يتعلّق بذلك. وهنا نرى على الأقلّ ثلاث أسباب للاستسقاء.

الأول: استسقاء فهم القرءان والدين. وهذا ماء الفهم، وهو ما قال عنه علي بن أبي طالب حين سُئل عن الوحي الذي عنده فقال بأنه كتاب الله و " فهماً يعطيه الله رجلاً في القرءان" وصحيفة فيها كلام النبي. فهذا الفهم الذي من عطاء الله يكون "في القرءان". فالقرءان موجود، لكن بدون فهمه لا

تنتفع به. فلابد من الفهم. "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب". "لعلكم تعقلون". فهذا الاستسقاء لفهم الوحي الموجود.

الثاني: استسقاء العلماء والفقهاء. وهذا لأن النبي قال بأن قبض العلم يكون بقبض العلماء، ولا ينفع وجود كتاب الله بين أيدي الناس في المصاحف بدون وجود علماء يعلمونه ويتعلّقون به ويعملون به ويفتون بحسبه، هذا مضمون روايات كثيرة في الباب. فإذا فقدت الأمّة أو طائفة منها في بلدهم وجود علماء فقهاء يعرفون كتاب الله والدين حق المعرفة، يمكن الاستسقاء. فسقي الأجسام بالماء ليس أولى من سقي النفوس بالعلماء، والاستسقاء لخروج الأشجار والأزهار ليس أولى من الاستسقاء لبعث المجددين الأخيار من أولي الأيدي والأبصار وذوي الأذكار والأفكار الكاشفة عن الأسرار والمشرقة بالأنوار.

الثالث: استسقاء الوحي. وذلك بالنسبة لمن لا وحي عندهم، أو فقدوا الوحي. فمن لا وحي عندهم، مَن لا كتاب إلهي عندهم كالأميين. ومَن فقدوا الوحي، كالذين رُفعت كتبهم أو تحرفت وتبدلت أو دخلتها شكوك جعلتهم يفقدون الثقة بنصوصها، ومن ذلك ما ورد في حديث حذيفة وروايات أخرى لها نفس المضمون عن النبي {يدرس الإسلام كما يدرس وشي الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نسك ولا صدقة، وليُسرى على كتاب

الله عز وجل في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية}، فعدم الدراية إما بسبب الجهل بمصادر الدراية وإما بسبب الشكوك التي ترفع الثقة بتلك المصادر، وكذلك عدم بقاء كتاب لله في الأرض هو من جفاف الأرض من ماء الوحي والذي يمكن أن يبعث الذين عطشت نفوسهم للوحي إلى الاستسقاء.

إذن، لدينا ثلاث دواعي للاستسقاء عند بني آدم، وليس عند البهائم فالبهائم تريد الاستسقاء فقط للأجسام الفانية، لكن الأوادم تريد الاستسقاء لنفوسهم الخالدة وقلوبهم الباقية وأرواحهم الربانية. فالبهائم يستسقون لماء الظاهر، والأوادم يستسقون لماء الباطن. كلاهما يستسقي، وكلاهما يستغيث ربه، والله يجيب ويعطي.

الداعي الآدمي الأول هو الاستغاثة للإمداد بالفهم، وهذا من قوله تعالى {ففهمناها سليمان} وقوله {الرحمن علّم القرءان} وقوله {إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً} وقوله {ثم إن علينا بيانه} وآيات كثيرة.

الداعي الآدمي الثاني هو الاستغاثة للإمداد بالعلماء، وهذا من قوله تعالى {إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} فإذا كان الله يمدّ مَن يستغيثه بالملائكة، فمن باب أولى أن يمدّ بأولي العلم فإن هؤلاء أنزل درجة من الملائكة كما قال تعالى "شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم"، فمَن يمدّ بالأعلى يمدّ بالأدنى وكل أهل العلم والإيمان لهم علو

ورفعة الدرجات. وكذلك هو من قبيل دعاء {اجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً} وقد أجاب الله هذا الدعاء حتى أمر النبي والمؤمنين بالقتال لأجل ذلك فبعثهم على وأمرهم. فمن أراد أن يخرج من {القرية الظالم أهلها} وهي قرية الجهل والظلم لتحصيل العلم والحكم والعقل والعدل فهو أقرب وأدعى للإجابة برحمة الله والكل عليه هيّن سبحانه وهو ميسّر ولطيف وقد خلق آدم للعلم {وعلّم آدم الأسماء} فالله أكرم من أن يجيب الإنسان الذي يشتغل بإنقاذ بدنه وإطعام جسمه في أمر الدنيا الفانية ويدع الذي يشتغل بإنقاذ نفسه وإطعام عقله من أمر الآخرة العليا الباقية.

الداعي الآدمي الثالث هو الاستغاثة للإمداد بالوحي، وهذا تابع لما سبق، وهو داخل فيه {ينزل الغيث وينشر رحمته} وأصل ما سبق من الفهم والعلماء إنما يدور مدار الوحي. فحيث لا وحي فلا فهم ولا علماء إذ الفهم إنما هو فهم في الوحي والعلماء إنما هم علماء بالوحي. فإذا جازت الاستغاثة لتحصيل الفرع، جازت من باب أولى لتحصيل الأصل. وكلمات الله لا تنفد، ويداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء. وقد بعث النبي بالقرءان لأمّة {ما جاءهم من نذير من قبلك} و كذلك حين توجد كتب محرفة ومبدلة كالذين {يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله}، وكذلك حين لا توجد كتب ميسّرة بلسان القوم أنفسهم {ما أرسلنا من قبلك من رسول إلا بلسان قومه

ليبيّن لهم} وقال {لقد يسّرنا القرءان للذكر فهل من مدّكر} وقال أنه نزّله بلسان عربي غير أعجمي حتى لا يعترضوا بأنهم لا يفهمونه لعجمته فكذلك حال بقية الأقوام إن استسقوا الله كتاباً من لدنه بلسانهم ميسّر لهم فالله برحمته يبسط ما يشاء لمن يشاء.

بعد هذه المقدمة الضرورية وهي مفتاح التأويل الباطني بإذن الله وتوفيقه للمسائل الشرعية، فتعالوا ندخل فيها مسألة مسألة ونستعين الله على فتحها وهو الفتّاح العليم.

أ-قال ابن رشد {أجمع العلماء على أن الخروج إلى الاستسقاء والبروز عن المصر والدعاء إلى الله تعالى والتضرع إليه في نزول المطر: سنّة سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم.}

هذا القدر مجمع عليه عند العلماء. لماذا؟ لأن الأربعة أشياء التي ذكرها هي أصول الاستسقاء في الباطن.

أوّلها {الخروج إلى الاستسقاء} وذلك بنيّة الخروج من ما أنت فيه الآن إما من فهم عاطل وإما من اتباع جاهل وإما من تقليد كتاب دين مشكوك فيه أو باطل. لأن أصل الاستسقاء أنك تطلب الفهم، فإذا كنت تعتبر ما عندك الآن من أفكار وعقائد هي الفهم الصحيح فما وجه الاستسقاء إذن؟

الاستسقاء للفهم يكون حين لا ترتوي بما عندك الآن من أفكار، بالتالي الخروج والتجرّد عن أفكارك الحالية ونبذ عقائدك الآنية شرط أولي. كذلك إذا كنت تستسقي للإغاثة بعالِم من أولياء الله، فهذا لا يكون إلا حين ترفض اتباع الأئمة والرؤوس الجهال الحاليين، وإلا فلو كنت تتبعهم وترضى بهم فما وجه طلبك ما ورائهم. وكذلك أيضاً في الوحي، فإن كنت تعتقد بأن ما في يدك هو فعلاً كتاب من عند الله، فما وجه طلبك كتاب آخر من عند الله. مفتاح الاستسقاء في كلمة {الخروج} هذه، لأن المتقيّد بشيء من الفهم والاتباع والتقليد فهو محبوس داخل هذه الثلاثة ويشرب منها وتشرب منها نفسه فلن يكون فيه باعث "دعوا الله مخلصين له الدين" ولا روح وقوّة "أمّن يجيب المضطرّ إذا دعاه". فانظر ما رزقك الله إياه الآن من فهم أو إمام أو نصوص، فإن وجدتها مشبعة لنفسك فبها، وإن لم تجدها كذلك فحينها لابد لك من نبذها تماماً وعدم التعلّق بها أي عليك بالخروج منها {إلى الاستسقاء}.

الأصل الثاني {البروز عن المصر} المصر حيث يجتمع الناس، فهذه الخطوة الثانية، وهي الخروج من الجماعة والحزب والطائفة والفرقة والأمّة التي تنتمي إليها، فلا تعتبر نفسك منتمياً لأي فرقة من الناس، لأن الفرقة "مصر" بمعنى أنها تربط عليك وأنت مربوط بها. فلا بد من التفرّد. وأن ترجع إلى حالتك حين خلقك الله وهي الفردية كما قال تعالى "لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم

أوّل مرّة". ففي شرط الخروج الأول، ترجع إلى حالتك الأصلية من الفقر إلى الله في العلم والإقرار بعدم علمك بشيء كما قال "الله يعلم وأنتم لا تعلمون" و قال "أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً". وفي الشرط الثاني أي البروز من المصر ترجع إلى حالتك النفسية الأصلية التي هي الفردية، فتقول كإبراهيم "الذي خلقني فهو يهدين".

الأصل الثالث {الدعاء إلى الله تعالى} وهذه تحتمل واحد من اثنين، كلاهما حق. الاحتمال الأول أن تكون إماماً حنيفاً لجماعة من الحنفاء الذين اشتركوا معك في الأصل الأول والثاني، وكلّكم تريدون الرجوع إلى الله تعالى وحده بفهم ومدد جديد حي من لدنه، فتقوم وتدعوهم إلى الله تعالى، ولا تدعوهم إلى غيره ولا مَن دونه، حتى تذكّرهم بالمقصود والمصمود إليه بالاستسقاء، فتذكرون الله من حيث تعاليه {الله تعالى} خلافاً لكل تجلّي وتنزّل حصل من قبل، لأن الاستسقاء طلب تجلي جديد وتنزيل محدث من الله تعالى سواء كان تنزيلاً على العقول الذي هو الفهم أو تجلياً بأهل العقول المقدسة الذين هم العلماء الأولياء أو تجلياً بالكلام المعقول الذي هو كتب الوحي بلسانكم. فإيمانكم بالمتعالي جلّ وعلا هو الذي بعثكم للاستسقاء، فتذكّرهم بذلك وتدعوهم إلى الله تعالى. هذا احتمال. الاحتمال الثاني، أن يكون المقصود بقوله {الدعاء إلى الله تعالى} صورة الدعاء، يعني أن تدعو الله وتستغيثه

ليمدّك بحسب موضوع الاستسقاء الذي خرجت له، فقد قال الله "ادعوني أستجب لكم" وقال "فإني قريب أجيب دعوة الداعِ" وقال "أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض" وقال "قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم" فإن دعوته سيستجيب لك وهو قريب يجيبك إذا دعوته وسيعبأ بك بسبب دعائك فرحمته واسعة وهو أرحم الراحمين.

الأصل الرابع {والتضرع إليه} فعلى اعتبار الدعاء إلى الله معناه نوع من الخطبة يكون التضرع هنا هو الدعاء الصادق النابع من القلب، وعلى اعتبار أن الدعاء هو صورة الدعاء فالتضرع روح الدعاء. والتضرع فيه معنى الضرع كما تقول ضرع البقرة وهو ما يتم حلبه لإنزال اللبن منه، فكذلك التضرع هو الدعاء الصادق القوي من عمق القلب بقصد إنزال الله لبن العلم من لدنه على نفسك بصورة فهم أو عالِم أو كتاب.

{في نزول المطر سنّة سنّها رسول الله} بالتالي ليس من الدين أن تبقى سلبياً وقانعاً بفقرك وفراغك، بل الفراغ داعية الطلب من الله. وهذه السنّة الرسولية موضوعة للتذكير ظاهراً وباطناً بوجوب السعي واكتساب الرحمة الإلهية بالدعاء فهذا طريق وضعه الله تعالى وبيّنه رسوله وصدّقه الأولياء بتجاربهم الكثيرة بحمد الله. فليس نزول مطر الحسّ غير نزول مطر النفس، هذا من الله وذاك من الله، والله رب العالَمين الحسي والنفسي، وبيده الملك والملكوت. ولم يرد

تقييد للاستسقاء بماء الحس دون ماء النفس. بل التحقيق أن معناه الأصلي هو لماء النفس، وأما ماء الحس فهذا أمر راجع إلى تركيب الطبيعة وأحوالها فإن بعض الأماكن تمطر وبعضها لا تمطر بحسب أحوال كثيرة وتوجد كائنات ومخلوقات كثيرة لا علاقة لها بالبشر تتأثر بأمر المطر الحسّي الطبيعي، وكذلك من المكابرة والعناد الفاحش الادعاء بأن شخصاً إن ذهب إلى أماكن قاحلة بطبيعة فطرتها وخلقها ولا يصلحها المطر أصلاً ولا تصلح له أنه إذا أخذ خيمته وضربها هناك وسأل الله المطر سيكون مستحقاً للاستجابة بل لعله للمكابرة والمعصية أقرب بارتكابه مثل ذلك ومخالفته أحكام الطبيعة وأحوالها، وفيه نوع من الأنانية المادية بحيث يتصوّر أنه وحده في الطبيعة ويستحق أن تتغيّر الطبيعة له بحسب هواه "ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن". وليس كذلك أمر النفس. فإن الفهم والعلماء والكتب دائماً خير، خير وأبقى وإلى الأبد، ولا توجد فيها المزاحمة والتضارب والتناقض والاختلافات ومراعاة مختلف الكائنات التي على أساسها أقام الله الطبيعة الحسّية. فهذه المسألة مثل بقية مسائل القرءان والكلام النبوي، أصلها في النفس وأمر الآخرة العليا، لكن الجنّ والشياطين الذين لا يعلمون الغيب جعلوا أصلها في الحس والطبيعة بل لعلهم يرونها فقط في الطبيعة ولا معنى باطني لها أصلاً ويرون ذلك نوعاً من الكفر والزندقة وما هو إلا إغراق في

الكفر والجهل وظلم النفس من طرفهم إن فعلوا ذلك. فأحسنهم حالاً مَن قال: لها ظاهر في الحس وباطن في النفس. وأكثرهم ينظر إليها كمجرّد قضايا حسّية من ظاهر الحياة الدنيا وصدق الله "ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة عن غافلون. أولم يتفكروا في أنفسهم".

ب-قال ابن رشد }واختلفوا في الصلاة في الاستسقاء: فالجمهور على أن ذلك من سنّة الخروج إلى الاستسقاء، إلا أبا حنيفة فإنه قال ليس من سنّته الصلاة{

أقول:

ورد في رواية عن النبي أنه استسقى على المنبر حين جاء رجل إليه فقال " يا رسول الله هلكت المواشي وتقطعت السبل فادع الله. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمُطرنا من الجمعة إلى الجمعة". فهذا استسقاء بمعنى الدعاء لنزول المطر. لاحظ هنا أن هذا الرجل الفقيه جاء إلى رسول الله وتوسّل بدعائه، ولم يجلس في بيته ويقول "سأدعو الله بنفسي"، لأن رسول الله وسيلة تنزّل الرحمات بل هو ذاته رحمة من الله "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" وحاله الدائم هو الفقر إلى الله والعبودية له "الحمد لله الذي أنزل على عبده

الكتّاب" فهو دائماً في مقام مشاهدة فقره إلى الله وعبوديته له لذلك دعاؤه على الدوام دعاء المضطر وهو دعاء مستجاب بنصّ الله تعالى. المنبر محلّ العالِم حين يُلقي كلامه على الناس، فالمنبر قبلة الاستسقاء لمن عقل. جاء هذا الرجل وقال "يا رسول الهل هلكت المواشي" وتأويلها: المواشي هم الأتباع المتعلّمين الذين يمشون بحسب أفكار شيخهم وتعليماته. وقوله "وتقطعت السبل" يشير إلى السبل إلى الله، يعني لم يعد بيدنا شيء معقول يجذب الروح للحق نعطيه العامّة ولا بقيت عندنا سبل حية مأذون بها من الله حتى ندلّهم عليها ونسلكهم فيها. وقوله "فادع الله" هو الاستسقاء. "فدعا رسول الله" فالرسول من عند نفسه لا يعطي شيئاً بل بالله تعالى والله هو الذي يعطي ويفيض ويتفضل على مَن يشاء بما يشاء حين يشاء كما يشاء، فالدين الحق لا يكون مؤسسة بشرية بحتة يرأسها بشر بأنفسهم بل الله تعالى هو مبدأ الأمر كله وإليه يُرجع الأمر كله هكذا هو الدين الحق الحي. ولذلك قال "فُمطرنا من الجمعة إلى الجمعة" لأن المواشي والسبل أصلاً تشير إلى اجتماع الناس إلى رأس يعلّمهم ويهديهم، وهذا أصل الجمعة حيث يُذكّر واحد بالله والآخرة وما عند الله أي يفيض علوم الآخرة. فهذا الرجل دعا رسول الله ورسول الله دعا الله، كما قال بنو إسرائيل لموسى " ادعُ لنا ربّك يبيّن لنا" فقال موسى "إنه يقول إنها بقرة". ومفتاح قبول دعاء هذا الرجل افتتاحه كلامه بقوله "يا رسول الله" وختمه بقوله "فادعُ الله". هذا

ما غاب عن أصحاب النار حين قالوا في دعائهم أصحاب الجنّة "أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله" فلا هم نظروا إليهم كأولياء لله في افتتاح كلامهم بل كان همهم نفوسهم الخبيثة فقط ولا هم ختموا بالتوسّل بهم ليدعو الله لهم برحمته ليعطيهم، وكذلك ذهبوا إلى عموم أصحاب الجنّة ولم يسألوا رسول الله تحديداً الذي هو الرحمة للعالمين. ومن هنا أيضاً دعائهم الملائكة "يا مالك ليقض علينا ربّك" أو "ادعوا ربكم يخفف عنّا يوماً من العذاب" فاستصغروا رحمة الله حتى سألوا تخفيف العذاب بدلاً من رفعه وكذلك لم يسمّونهم بأسماء الرحمة وكذلك لم يسألوا رسول الله الذي هو مرجع الناس "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول" "إذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة" فمن جاء رسول الله بالإيمان فقد وصل إلى وسيلة الرحمة بإذن الله وفضله. " حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله". إذن، هذا الاستسقاء يكون للفهم وفروعه، لأن إيمانهم برسول الله يعني أخذهم الوحي منه أي القرءان، وكذلك هو يدل على وجود عالِم بينهم وهو الرسول نفسه، فما كانوا يفتقرون إليه هو العلم والفهم والإذن بخصوص أنفسهم ومواشيهم وسبلهم. فلا صلاة هنا بالمعنى الشائع للصلاة. وإن كان الحق أن هذا الرجل قد صلّي، لأنه جاء رسول الله ودعاه ليدعو الله، ورسول الله هو ذكر الله كما قال تعالى في سورة الجمعة "فاسعوا إلى ذكر الله" ثم قال "وتركوك قائماً قل ما

عند الله خير" فذكر الله وما عند الله هو برسول الله، "من يطع الرسول فقد أطاع الله". وقال الله في الصلاة "أقم الصلاة لذكري" بالتالي من تعلّق برسول الله فقد تعلّق بذكر الله. وكذلك الصلاة جوهرها الذكر والدعاء، وهذا الرجل قد ذكر الله حين قال "يا رسول الله..فادع الله"، وكذلك دعا الله حين سأل الله رسول وقد قال الله "إذا سألك عبادي عنّي فإني قريب أجيب" وهذا الرجل قد سأل رسول الله عن الله فأجابه الله كما وعد. فهذا عن قول أبي حنيفة أن الصلاة ليست من سنّة الاستسقاء.

وأما عن قول الجمهور، ففي رواية أخرى ورد ذكر شعيرة مخصوصة قام بها رسول الله حين خرج للاستسقاء. قال الراوي أن {رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج بالناس يستسقي فصلّى بهم ركعتين جهر فيهما بالقراءة ورفع يديه حذو منكبيه وحوّل رداءه واستقبل القبلة واستسقى". فهنا نجد الاستسقاء الجماعي مع الإمام. {خرج بالناس يستسقي} يعني خرج من المدينة، وهي مدينة العلم، فخرج بهم من علمهم وأرجعهم إلى تذكّر "وأنتم لا تعلمن" فعادوا فقراء خالصين لله. {فصلّى بهم ركعتين} دليل وجود صورة الشريعة بين الناس، مما يدلّ أنه استسقاء فهم وعلم جديد من الله، أي الصورة الموجودة لكنهم يطلبون الروح المجددة والذكر المحدث والفهم المعطى في الدين. فركعة عادوا تبرأوا فيها مما عندهم، وركعة سألوا فيها ما عند ربهم. {جهر فيهما بالقراءة}

توسّل إلى الله بكلام الله، فهو من قبيل "ورتّل القرءان ترتيلاً" من أجل "إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً" وهو الفهم في القرءان المقروء، والجهر في القراءة نوع تقرير للناس بأنهم يسمعون ولا يعقلون ما يسمعون فقد رفعوا إذن كؤوس الكلمات القرآنية إلى الله يسألونه أن يملأها بالفهم والمعنى الحي من لدنه، فالجهر ضد السر فهو ظاهر يضاد الباطن لأن الاستسقاء يكون لمن عندهم الظاهر بدون الباطن أو يريدون معرفة السرّ وراء الكلمات المقروءة. {ورفع يديه حذو منكبيه} وهو من النحر وفيه معنى التحرر من كل رأي شخصي فلا يخترعون فهماً للمقروء من عندهم بل يريدون المدد من الله تعالى، وهو علامة الإفلاس أي رفع اليدين بمعنى أننا لا نملك شيئاً يا رب وأتيناك بأيدي فارغة لتملأها من عطائك. {وحوّل رداءه} كما عبّر بالقراءة بالقول، وعبّر برفع اليدين بفعل جسمه، عبّر بتحويل الرداء بفعل لباسه، فعبّر بالقول والبدن واللباس وهي الثلاثة الأشياء الظاهرية التي يملك التعبير بها، وبتحويل الرداء سأل الله أن يحوّل الحال أي بأن يجعل الباطن ظاهراً لهم والمخفي مكشوفاً والمحبوس مُطلقاً متجلياً. {واستقبل القبلة} وهي وجه الله فإن "الله في قبلة المصلي" وفيها معنى القبول أي فتح قلبه لقبول ما يرد عليه من الله، وكذلك القبلة هي الكعبة بيت الله التي هي مركز العالَم بالمثال فيريد من الله أن يملأ كعبة نفسه التي هي قلبه بالروح المنزل من لدنه. {واستسقى} وهو الدعاء والسؤال بإنزال الماء المحيي من

الحي القيوم. فهنا سبع خطوات. الخروج بالناس وصلاة ركعتين والجهر بالقراءة ورفع اليدين وتحويل الرداء واستقبال القبلة والاستسقاء، فهي سبعة مثل "سبع سموات" لأن النفس لها سبع درجات تقابل كل واحدة منها سماء من السموات السبع فإن النفس سماوية ولذلك المؤمن حين يموت تُفتّح له أبواب السماء خلافاً للكافر الذي دسّ نفسه في تراب الدنيا والمحسوسات فتنجّست نفسه فلم تعد سماوية فلا يُفتح لها لأن الفتح بحسب المناسبة ما بين المفتوح له والمفتوح إليه.

ج-قال ابن رشد {وأجمع القائلون بأن الصلاة من سنّته على أن الخطبة أيضاً من سنّته} ثم ذكر اختلافهم هل الخطبة قبل الصلاة أم بعدها فقال فريق بأنها قبل وفريق بأنها بعد.

أقول: الخطبة تذكير للناس، وهي أوائل بشرى الاستسقاء لأن الخطبة نفسها كلام يلقيه الرسول على الناس وهو سقي لنفوسهم بكلامه. فحين يخرج الناس للاستسقاء الحسّي، يُظهر لهم الاستسقاء النفسي حتى يبشّرهم وحتى يكون موضع الخطبة مباركاً من حيث أنه صار مكاناً لنزول ماء الكلام النبوي على الناس فيكون من قبيل "هنالك دعا زكريا ربه" عند مريم، وحتى يذكّرهم

بأن الأصل هو سقاية النفس بالكلام النبوي فلا يحصروا في الظاهر دون الباطن.

كون الخطبة قبل الصلاة يعني أن كلام النبي قبل قراءة كلام الله، وذلك من قبيل إعداد النفوس لاستقبال كلام الله فتترقّى بكلام النبي كصعود السُلَّم إلى كلام الله.

كون الخطبة بعد الصلاة يعني أن كلام الله هو الضوء الذي يجعل كلام النبي مفهوماً حق الفهم، لأن النبي أصلاً استضاء بنور القرءان.

لأن الناس ما بين محتاج إلى الإعداد وما بين مستعد لتلقّي كلام الله، فإن الناس ما بين مؤمن ضعيف ومؤمن قوي، اختلفوا في الخطبة على قولين حتى يجمعوا الدلالة على الطبقتين.

فمن رأى النبي كتاب الله وتجليه ووجهه للعالَم "إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله"، فالخطبة عنده قبل الصلاة، فهؤلاء الذين غلّبوا جانب "يوحى إليّ" على جانب "بشر مثلكم" وهم أصحاب العين الروحية والبصر.

ومَن رأى النبي كعبد الله ومفتقر مثلهم إليه، فالخطبة عنده بعد الصلاة، فهؤلاء حين ينظرون النبي يصلّي معهم قبل أن يخطبهم يرونه مثلهم في البشرية أولاً قبل أن يتلقّوا منه آثار الوحي الإلهي المفاض عليهم من نفسه المكرّمة.

فالفريق الأول ينظر من الباطن إلى الظاهر، والفريق الآخر ينظر من الظاهر إلى الباطن. وكُلّ على خير.

د-قال ابن رشد {واتفقوا على أن القراءة فيها جهراً}

أقول: الجهر بالقراءة يذكّر الناس أن القرءآن موجود كنصّ محفوظ، فهو ينبههم إلى وجود الكتاب فيهم، فالذي خرجوا من أجله هو تحصيل الفهم والتعقل للكتاب. فلا تسأل الله خلق شمس جديدة والشمس فوق رأسك حاضرة، كذلك لا تسأل كتاباً مقروءاً والكتاب المقروء بين يديك حاضراً.

هـ-قال ابن رشد {واختلفوا هل يكبّر فيها} ثم ذكر تكبير العيدين أو تكبير سائر الصلوات، على قولين.

أقول: العيد فيه معنى الفرحة، إما فرحة الفطر بعد رمضان وهو شهر نزول القرءان، وإما فرحة الأضحية وذلك بعد الحجّ الذي قصد بيت الله. فعيد رمضان تذكّر نزول القرءان أي الكتاب موجود، وعيد الأضحى تذكّر وجود الشعائر الظاهرية بالتالي الظاهر محفوظ، فالعبرة هي بفهم هذا الظاهر وتعقلّ تأويله وحكمته. كذلك فيه تذكير بعطاء الله السابق حين أنزل القرءان وهو ماء العلم، وحين دلّ إبراهيم على مكان البيت وهو ماء الحكم حيث وردت

الأحكام بالبناء والمناسك عنده من الله. فتكبيرات العيدين للاستسقاء تذكير بعطاء الله السابق علماً وحكماً، وفتحه من السماء لنبينا محمد أو فتحه في الأرض لسيدنا إبراهيم، فيتذكّر بذلك أصل الملّة الحنيفية، والحنفاء هم أهل الاستسقاء على الحقيقة. هذا وجه لمن قال بأن تكبيرات الاستسقاء كتكبيرات العيدين.

وأما الذين قالوا بأن التكبير فيها كسائر الصلوات، فعلى اعتبار أن كل صلاة من الصلوات هي معراج للمؤمن، وفيها قرءان وفيها حجّ لبيت الله من حيث الباطن حيث تقصد وجه الله ومن حيث الظاهر حيث تقصد بيوت الله ومساجده. ففيها تذكير بأن العطاء الإلهي أمر مستمر ودائم، وليس حدثاً استثنائياً نادراً كرمضان والحجّ في بقية السنة مثلاً.

فمن كان الغالب عليه رؤية الفتح الإلهي كحدث استثنائي، قال بالتكبيرات كالعيدين. ومن كان الغالب عليه رؤية الفتح الإلهي كأمر مستمر ودائم، قال بالتكبيرات كسائر الصلوات.

ومن كان يرى كل فتح جديد على أنه حدث استثنائي من حيث أن الله واسع ولا ينزل منه شيء بتكرار أصلاً، قال بالتكبيرات كالعيدين. ومَن كان يرى الفتح الجديد لا يكون إلا تابعاً للأمثال والأمور الكلية المكشوفة سابقاً من حيث أن المبادئ محفوظة والأصول الكلية سبق كشفها فلم يبقى إلا مظاهرها وألوانها، قال بالتكبير كسائر الصلوات.

و-قال ابن رشد {اتفقوا على أن من سنّتها أن يستقبل الإمام القبلة واقعاً ويدعو ويحوّل رداءه رافعاً يديه. واختلفوا في كيفية ذلك ومتى يفعل ذلك.} أقول: هذا قد مضى.

{فأما كيفية ذلك فالجمهور على أنه يجعل ما على يمينه على شماله وما على شماله على يمينه. وقال الشافعي: بل يجعل أعلاه أسفله وما على يمينه منه على يساره وما على يساره على يمينه}.

أقول: الأعلى والأسفل، واليمين والشمال. فالأعلى هو الحق والأسفل هو الخلق. واليمين هو الروح، والشمال هو الجسم. ولأن الاستسقاء هنا هو طلب علم التأويل والباطن، وإنما يستسقي مَن كان من أهل الظاهر والجسم ورؤية الخلق، فلذلك لابد من تحويل الأعلى عنده وهو الجسم الذي جعله الأعلى في نظره إلى الأسفل، أي أن يجعل الحق أعلى والخلق أسفل خلافاً لما كان عليه. وكذلك لابد من تحويل اليمين إلى الشمال والعكس، أي يجعل الروح غالباً وأساساً، والجسم تابعاً ومندرجاً تحته. فعملية القلب هذه تدلّ على قلب الأمور كلها والنصوص، وهو التدبّر في القرءآن لأنه طلب دبره أي ما هو خلفه.

فالقرءان قُبله وأمامه هو الأمثال أي الخلق والظاهر، وهو يريد الحق والباطن بالاستسقاء.

فقول الجمهور يتعلّق فقط بأمر النفس والحس. أي اليمين والشمال. وهي معرفة الذين قالوا: لا طريق لمعرفة الله المتعالي وإنما مقصدنا معرفة نفوسنا وتخليصها من سجن الدنيا الحسّية. فهؤلاء يقولون بجعل {ما على يمينه على شماله، وما على شماله على يمينه}، وذلك تحويل كتاب الله من أن يكون دالاً على الحس قبل النفس، إلى أن يكون كما هو في الحق دالاً على النفس قبل الحس. فيتم قلب الدلالة عند الجاهل، حتى تستقيم على موازين الآخرة العليا كما هي عند العاقل.

وأما قول الشافعي، فيشير إلى البُعد العمودي لا البُعد الأفقي فقط. يعني العطشان هذا الذي يلاحق سراب الخلق، عليه أن {يجعل أعلاه أسفله} فالخلق الذي يعتبره أعلى عليه أن يجعله أسفل، والعكس تلقائياً سيحدث، فلا يرى الله مختفياً والعالَم هو الظاهر والعياذ بالله، بل يرى الله هو الظاهر والعالَم هو الغيب الذي يطلب الدلالة عليه بالله تعالى كما قال "حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده". فالجاهل يرى العالَم شيئاً، ويرى الله مشكوك الوجود أو غير موجود أو على أقلّ تقدير مختفياً غائباً عن الوجود الظاهر، وبالاستسقاء يطلب عكس الأمر بحيث يعرف أن الله "هو الأول والآخر والظاهر والباطن"

وليس لغير هويته تعالى وجود لا في الأسماء ولا في المعلومات ولا في المخلوقات. ثم بعد هذه المعرفة الإلهية، ينتقل إلى المعرفة التي تحتها وهي معرفة النفس وصلتها بالحس فيجعل {ما على يمينه منه على يساره وما على يساره على يمينه} وهذا كسابقه من وجه.

{وأما متى يفعل الإمام ذلك: فإن مالكاً والشافعي قالا يفعل ذلك عند الفراغ من الخطبة. وقال أبو يوسف يحوّل رداءه إذا مضى صدر من الخطبة}

أقول: الخطبة سقاية كلامية، فإذا مضى صدر منها وحوّل رداءه كان معنى ذلك أنه يعبّر بالفعل خلال القول حتى يكون الفعل ذاته تعبيراً عن العقل والإرادة فيكون أشد دلالة على أن تحويل الرداء هو وسيلة تعبير مثل اللغة.

الذي حوّل الرداء بعد الفراغ من الخطبة أراد التمييز بين التعبير باللغة والتعبير بالفعل والرمز الأعجمي الذي هو التعبير بالحركات واللباس.

ولكل واحد وجه. فإن المدلول في الحالتين هو ما في القلب، لكن أحياناً القلب يعبّر باللغة وأحياناً يعبّر بالفعل الصوري والرمز المادّي. فلمّا كان الناس على طبقتين، منهم مَن يرى التعبير باللغة هو التعبير الوحيد وكل ما لا يندرج فيه فلا يعتبرونه تعبيراً سليماً جاء تحويل الرداء أثناء الخطبة، ومَنهم مَن يرى

التعبير بكل صوت أو صورة يساوي كل تعبير آخر جوهرياً من حيث أنها كلها ألسنة تدلّ على ما في القلب جاء تحويل الرداء بعد الفراغ من الخطبة.

الفريق الأول أدنى درجة في العلم وكُلّ على خير، وذلك لأن الواقع هو أن المقصود من كل وسيلة تعبير الكشف عن النفس وهي غيب، والوسيلة وسيلة تحويل غيب النفس إلى شهادة ظاهرة، فكل ما أدّى إلى ذلك فقم أتمّ ما عليه. هذا اعتبار. الاعتبار الآخر بالعكس، وهو أن الفرق الأول أعلى درجة في العلم، من حيث أنه التزم بما خُلق له وهو البيان "علّمه البيان" والبيان باللسان والكلام أصله، "بلسان قومه ليبيّن لهم"، فلمّا نظر هؤلاء إلى أهمّية اللغة وكذلك نظروا إلى أن التعبير بأي وسيلة صورية عجماء يحتاج إلى تفسير لغوي وإلا اشتبه الأمر على الناظرين (ومن هنا مثلاً الكتب عادةً لا تحتاج إلى تفسير إن كانت مكتوبة بلسان قومه ومبينة المقاصد وفصيحة، بينما الأعمال الفنية كالرسومات والتماثيل وأشكال الألبسة وما أشبه تحتاج إلى تفسير لغوي وإلا لا يستبين مقصد صانعها). فبما أنه لكل اعتبار وجه من الحق، جاءت الروايات بالوجهين معاً، حتى يكون لكل وجه من الحق رأياً يعبّر عنه ويريه الناس.

ز-قال ابن رشد }وكلهم يقول: إنه إذا حوّل الإمام رداءه قائماً حوّل الناس أرديتهم جلوساً.إلا محمد بن الحسن والليث بن سعد وبعض أصحاب مالك فإن الناس عندهم لا يحوّلون أرديتهم بتحويل الإمام{

أقول: فقول يوجب على الناس اتباع الإمام وقول يكتفي بفعل الإمام. لماذا؟

لأن الاستسقاء طلب الغيث من الله. والاستغاثة إما أن تكون بدعاء الكل مباشرةً وإما أن تكون بدعاء الكل بواسطة معبّرة موكّلة. كلاهما وارد في القرءان. فأما أن يعمل الكل فهذا هو الأصل من حيث أن كل فرد مكلّف بالعمل للتعبير عن إرادته وتوصيلها لربّه. وأما كون عمل الإمام يكفي ويغني عن عمل كل فرد يأتم به، فهذا في قوله تعالى {قال موسى ربنا إنك آتيت} ثم دعا على فرعون، وقال الله بعدها {قد أجيبت دعوتكما}، لاحظ أنه قال {قال موسى} ونسب القول لموسى فقط فهو الذي دعا، لكن بعدها قال {قد أجيبت دعوتكما} بالمثنّى والمفهوم من الآيات هو دعوة موسى وهارون، فنسب الله الدعوة إلى موسى وهارون معاً. بالتالي كان القول قول موسى وحده، لكن الدعاء دعاء موسى وهارون معاً. كيف؟ المفهوم أن هارون كان مع موسى حين قال موسى ما قاله وكان قصده متوحداً معه أي كان موسى نائباً عن هارون في الدعاء وهارون راضٍ بذلك. فموسى عبّر عن نفسه وعن هارون

الذي أنابه حين شاركه في القيام بالدعاء. إذن، مَن فعل بنفسه فهو الأصل، ومَن وكّل غيره بالفعل عنه فله وجه مقبول في القرءان.

وعلى ذلك، الذين قالوا لابد من مشاركة الناس بتحويل الأردية مع الإمام، نظروا إلى أن الاستسقاء عمل جماعي لكل فرد حصّته في إقامته. والذين قالوا يكفي فعل الإمام، نظروا إلى أن الإمام ممثّل الجماعة ونائبهم ووكيلهم في ذلك وكونهم خرجوا معه وجلسوا ومقاصدهم ونيّاتهم في التأمين على ما يقوم به فيكفي هذا لاعتبارهم معه.

لكن ما تأويل ذلك؟

العلم حين يأتي لإمام جماعة فإنه سيفيضه عليهم فيكفي نزوله على واحد ليصل إلى الكل، كما أن القرءان مثلاً نزل على النبي وهو واحد لكنه بعد ذلك شاركه ونقله للكل. هذا وجه. لكن الوجه الآخر، الفهم أمر خاص بكل فرد، وكل فرد يريد تحوّل عقله من الجهل إلى الفهم، فلابد لكل فرد من أن يقوم بعمل ما يعبّر عن ذلك.

فمن نظر إلى المعلومة كصورة ذهنية يمكن نقلها بين الكثير بواسطة واحد، وهم أصحاب الفهم الفكري، اكتفوا بحصول الغيث لإمامهم وقائد جماعتهم. لكن الذين نظروا إلى المعلومة كحقيقة وجدانية، وهم أصحاب الفهم الذوقي،

شاركوا في العمل وحوّلوا أرديتهم لعلّ الحالة المتردّية لكل واحد منهم تتحوّل بفضل الله تعالى.

تأويل آخر: حين يكون الاستسقاء من أجل حصول الفهم فقط، أي يوجد علماء بينهم لكن الأفراد يريدون الفهم وحتى العلماء بينهم يريدون مزيد من الفهم، فالجماعة قائمة لها إمام، فيكفي عمل الإمام. لكن حين لا يوجد علماء ولا إمام أصلاً، والجماعة لها إمام بمعنى مجرّد شخص قدّموه ليقيم الاستسقاء لكنهم عموماً في مستوى دون مستوى العلماء، وهم يستسقون لكي يغيثهم الله بعالِم من لدنه، فحينها عليهم كلهم تحويل أرديتهم. حين يوجد إمام عالِم، يكفي فعل الإمام. حين لا يوجد إمام عالِم، على الكل الفعل لأنهم سواسية.

ح-قال ابن رشد {وجماعة من العلماء على أن الخروج لها وقت الخروج إلى صلاة العيدين، إلا أبا بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم فإنه قال إن الخروج إليها عند الزوال، وروى أبو داود عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الاستسقاء حين بدا حاجب الشمس}

أقول: ربط الاستسقاء بالعيدين قد مضى وجهه، فجعلوا الوقت واحداً لذلك.

وجعلها عند الزوال الذي هو أول وقت المكتوبة {لدلوك الشمس} يربطها بالصلوات الأساسية، وقد مضى وجه ذلك.

جعل الوقت موافقاً للوقت، تعبير عن ربط المعنى بالمعنى.

{حين بدا حاجب الشمس} فإن الدليل من الآفاق على أن الله يضيء القلوب بالعلم والأمّة بالعلماء وينزل الكتاب هو بدو {حاجب الشمس}. وهذا في القرءآن كثير، أي ربط ظاهرة الوحي بالظواهر الطبيعية، على أساس أن خالق ذاك هو مُنزل هذا. فكما أن الله جعل في الطبيعة آيات للحسّ، كذلك جعل في الديانة آيات للنفس، والعالَمين من عليم حكيم واحد. فمَن أراد العلم والفهم، فآيته ضوء الشمس في الأرض. ومَن أراد العلماء، فالعالِم هو {حاجب الشمس} أيضاً من حيث أنه وسيلة إضاءة الأمّة. ومَن أراد الكتاب الإلهي فآيته أيضاً {بدو حاجب الشمس} فإن الكتاب في الأمّة هو حجاب كلام الله الذي يضيء لها عقولها وطريقها. خالق الشمس للحسّ، هو جاعل النور في النفس. وهو الحي القيوم.

والحمد لله رب العالمين.